

الثابت والمتغير في الممارسات الاحتفالية - (الوعدة) انموذجا. دراسة إثنوغرافية

The constant and the variable in ceremonial practices- (The promise) is an example.Ethnographic study

تاريخ النشر: 2024/10/31

تاريخ القبول: 2024/09/09

تاريخ الإرسال: 2024/05/04

دادي محمد¹

¹جامعة تيارت ، الجزائر ، EMAIL : mohamed.daddi@univ-tiaret.dz

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن التغيرات الاجتماعية والثقافية التي عرفها المجتمع المحلي، وذلك من خلال الوقوف على الثابت والمتغير في ظاهرة (الوعدة). وقد تم اعتماد المنهج الإثنوغرافي والوصف المكثف والملاحظة المباشرة كتقنية منهجية. كما تم التركيز على مفهومي القداسة (البركة)، والبعد الرمزي المتمثل في الممارسات الاحتفالية والطقوسية. وتخلص الدراسة إلى أن المجتمع المحلي يعرف تغيرات على مستوى البنى السوسيو-ثقافية والاقتصادية، وهذا ما انعكس على ثقافته المحلية وقيمه الرمزية، كما أثر على العادات والتقاليد على الرغم من رسوخها في المخيال الجمعي الذي ظل يتوارثها من جيل لجيل. غير أن التحديات التي تفرضها الثقافة الوافدة نتيجة التطور التكنولوجي والمعلوماتي، وانتشار الفكر السلفي، أدى إلى وضع الثقافة المحلية أمام رهانات ، ودفع بها إلى إظهار نوعا من المقاومة من أجل البقاء. وتعتبر (الوعدة) كموروث شعبي لا يزال المخيال الاجتماعي يحافظ عليه رغم كل هذه التحديات التي تفرضها الثقافات الوافدة. كلمات مفتاحية: الوعدة، الطقس، المقدس، الانتماء، الاحتفال، التغير.

المؤلف المرسل: دادي محمد ، الإيميل: mohamed.daddi@univ-tiaret.dz

Abstract:

This study aims to reveal the social and cultural changes that the local community has experienced, by examining the constants and variables in the phenomenon of (al-Waadah). The ethnographic approach, intensive description, and direct observation were adopted as a methodological technique. The focus was also on the concepts of sanctity and (baraka), and the symbolic dimension represented in ceremonial and ritual practices. The study concludes that the local community is experiencing changes at the level of socio-cultural and economic structures, which was reflected in its local culture and symbolic values, and also affected customs and traditions despite their entrenchment in the collective imagination that has continued to be inherited from generation to generation. However, the challenges imposed by imported culture as a result of technological and information development, and the spread of Salafi thought, have put the local culture before bets, and pushed it to show a kind of resistance in order to survive. (al-Waadah) is considered a popular heritage that the social imagination continues to preserve despite all these challenges imposed by imported cultures.

Keywords: Promise, Weather, Sacred, Belonging, Celebration, Transformation.

1. مقدمة:

يزخر التراث الشعبي بعادات وتقاليد شعبية كثيرة ساهمت فيها الأجيال عبر عصور مختلفة، وقد اتخذت صبغة طقوس مقدسة أصبحت بذلك مشتركة بين أبناء المنطقة أو الجهة. ومن بين العادات والتقاليد التي بقيت مستمرة ومتواصلة ليومنا هذا نجد ظاهرة أو احتفالية (الوعدة)، وهي ظاهرة ذات أصول وجذور امتدت فروعها وتشعبت وتشابكت لتصبح راسخة في اللاشعور الفردي وجزءا من نسق الدين وعنصرها من عناصر الثقافة في المجتمع الجزائري. وقد يأخذ البعض من هذه العادات والتقاليد

طابع القداسة وتصبح المحافظة عليها من الأهمية بمكان بالنسبة لجميع أفراد المنطقة أو الجهة (القبيلة)، على الرغم من التحولات والتغيرات السريعة والمتسارعة التي يشهدها العالم، ويرجع ذلك للتطور العلمي وللطفرة التكنولوجية الهائلة التي عرفتها المجتمعات الحديثة.

إن للوعدة وظيفتها ودلالاتها الاجتماعية والدينية، وهي عادة ارتبطت بالتراث الشعبي، كما أنها ظاهرة عامة عرفها المجتمع المغربي عامة والجزائري بصفة خاصة، وقد انتشرت في القرى والمدن حيث عمل الناس على إحيائها في مواسم معينة واستمروا في إقامتها، فديمومة هذه الظاهرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع الاجتماعي للناس. فظاهرة الوعدة أو الزردة أو الطعم عادة من هذه العادات التي ارتبطت بالتراث الشعبي، وهي في الواقع ظاهرة عامة عرفها المجتمع الجزائري على اختلاف تسمياتها من منطقة لأخرى، واستمروا في إقامتها اعتقادا منهم أن عدم إقامتها قد تؤدي إلى تأخير نزول الغيث أو زوال البركة.

فاستمرارية هذه الظاهرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع الاجتماعي للناس الذي يركز بدوره على الفلاحة، المورد الأساسي للفئات العريضة من السكان، وعليه فهي مؤطرة بالزمان والمكان. وقد لعبت الوعدة دورا كبيرا في الحفاظ على الشخصية الوطنية وعلى التماسك الاجتماعي للسكان. وفي إطار هذه الإشكالية تسعى هذه الدراسة الإثنوغرافية لطرح مجموعة من القضايا والتساؤلات المثارة حول مفهوم الوعدة وارتباطاتها التاريخية والطقسية، إضافة إلى وظائفها السوسيوثقافية. وبما أن المجتمع الجزائري (المحلي) كغيره من المجتمعات البشرية، قد عرف عدة تحولات وتغيرات على المستوى الاجتماعي والثقافي وحتى الاقتصادي نتيجة التحولات التي يشهدها العالم، والتي انعكست على الكثير من القيم والسلوكات والممارسات، ومن هنا حاولنا من خلال هذه الدراسة الوقوف على انعكاسات هذه التحولات على المجتمع المحلي من خلال احتفالية الوعدة. ولأجل ذلك تمت صياغة إشكاليتنا على النحو التالي: كيف استمرت احتفالية الوعدة رغم التحولات والتغيرات التي عرفها المجتمع المحلي؟ وماهي طبيعة التغيرات التي

طرأت على هذه الاحتفالية؟ وهل التغيرات التي حدثت في ظاهرة الوعدة متعلقة بجوهر الاعتقاد أم هي متجلية فقط في ظاهره الشكلي؟

2. الإطار المنهجي للدراسة:

1.1. المنهج المستخدم:

لقد تم اعتماد المنهج الوصفي في هذه الدراسة، وذلك لملاءمته لطبيعة الدراسة الإثنوغرافية، وقد تم الاستعانة بمنهج الوصف المكثف La discription dence، هذا المنهج الذي أصبح معتمداً من طرف العديد من الباحثين في الأنثروبولوجيا، وذلك منذ ابتكاره من قبل الأنثروبولوجي الأمريكي (كليفورد غيرتز Clifford Geertz). أما فيما يخص العينة، فإنه لم يتم الاعتماد على عينة معينة، وإنما تم استخدام الملاحظة المباشرة على مجتمع البحث ككل، وعليه فإنه من الضروري في هذه الحالة أن يصبح اختيار طريقة العينة بدون جدوى.

2.2. أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في محاولتها الوقوف على التغيرات والتحولات التي طرأت على احتفالية الوعدة، وكذا الجوانب التي بقيت ثابتة دون تغير رغم كل التحولات التي عرفها المجتمع المحلي. كما تكمن أهمية الدراسة في معرفة الاستراتيجيات التي يعتمدها المجتمع المحلي للمحافظة على موروثاته الشعبية في ظل التغير الاجتماعي، والتبدل في العلاقات الاجتماعية التي يعرفها المجتمع نتيجة التطور التكنولوجي والتحول الاقتصادي من جهة، والانتشار الواسع للفكر السلفي الذي ينبذ ويحارب مثل هذه الاعتقادات الشعبية والممارسات الاحتفالية والطقوسية من جهة ثانية.

3. أهداف الدراسة:

-التعريف باحتفالية الوعدة، وبالطقوس الممارسة خلال هذا الاحتفال بالمجتمع المحلي المدروس.

-إظهار المتغيرات التي طرأت على احتفالية الوعدة في سياق التحولات التي يشهدها المجتمع المحلي على غرار باقي المجتمعات.

-إبراز أسباب استمرار وصمود الوعدة كموروث شعبي واعتقاد جماعي راسخ لدى شرائح واسعة من المجتمع المحلي رغم التحديات التي يفرضها الواقع.



أسباب اختيار الموضوع:

يرجع سبب اختياري لاحتفالية الوعدة بهذه المنطقة لكوني أقطن بالقرب منها، وبالتالي أعرفها أكثر من غيرها، وهذا ما يسهل عملية الدراسة والبحث الأنثروبولوجي.

4.2. تحديد المفاهيم:

1.4.2. مفهوم الوعدة:

الوعدة: تشتق في فقه اللغة العربية من فعل "وعد"، والتي تعني تواعد تعهد بشيء ما، أخذ على عاتقه شيئا ما. وقد اعتاد المسلمون ان يقدموا نذرا لله تعهدوا به إذا تم قضاء حوائجهم، ونفس الشيء بالنسبة للمؤمنين (المريدين) ومن الزوار من غرضه للزيارة بالوفاء بالوعد الذي أخذه على نفسه اتجاه ذلك الولي، وتكون عادة اعتراف بالجميل إذا تحققت إحدى أمنياته، فإذا تم له ما أراد، يقوم عندئذ باحترام تعهده تحت عاقبة الكفارة أو النكث بالعهد. ومن جهة أخرى، فالوعدة تعبر عن موعد محدد لا يخضع لأي تغيير أو تبديل، يرتبط بمناسبة دينية، أو فلاحية أو اجتماعية. (طوالي، 1988، الصفحات 122-123).

ويسمى البعض بالزردة وآخرون بالطعم أو الركب أو المعروف أو الموسم وغير ذلك من الأسماء، والتي وإن تعددت بين جميع هذه الاصطلاحات فإن معناها يبقى في الكثير من محموله ذات بعد وهدف واحد كما يعرفها مثلاً Dermenghem. كطقس يقام على شرف الولي الصالح، لأجل إبعاد الشر وتحقيق الأمانى والشفاء والنجاح...، مثلما تعرفها "Anddezian Sossie كعادة طقوسية احتفالية تقام حول قبور الأولياء تقدم فيها الأضاحي لتحقيق الأمانى المرجوة. (بو وشمة، 2008)

غير أن مفهوم الوعدة لم يحسم فيه بعد نظرا لغياب الدراسات الأنثروبولوجية الجادة في هذا المجال إلا أنه لا يستبعد فرضية أن تكون الوعدة حديثة العهد ترتبط بسقوط غرناطة و بأهلها (الموريسكيون) الذين هجروا الأندلس و استقروا بشمال إفريقيا

بما في ذلك الجزائر، وباتت ظروفهم الجديدة تحتم عليهم تجديد موعد للتلاقي، و كان ذلك مع نهاية فصل الصيف و بداية فصل الخريف و عند التقاء الجموع كانت تنصب الخيام و تذبح الذبائح تتخللها قراءات شعرية و موسيقى و رقص الذي اشتهر به المجتمع الأندلسي خاصة في مجال التوشيح و الزجل و غيرها من الفنون. و عند انتهاء اللقاء الذي كان يدوم لأيام و يأخذ شكل الاحتفال الشعبي تفرق الوفود ضاربة لنفسها موعداً للعام المقبل في نفس الموسم و المكان. و من هنا أخذ الاحتفال إسم الوعدة و ربما كانت في الأصل (الوعدة) ثم تأثنت التسمية مع مرور الزمن تماماً مثل ما تغيرت أمكنة و أزمدة حدوثها مع تغيير أحوال المجتمع الجزائري. (مكحلي، 2018).

وبناء على ذلك فإن مفهوم الوعدة هو ظاهرة احتفالية تتضمن الأبعاد الدينية وما يرافقها من طقوس وما يحيط بها من تقديس، مثلما هي ظاهرة اجتماعية، وذلك لِمَ تشمله من عادات وتقاليد وقيم، كما أن لها أبعاد ثقافية، وذلك لِمَ تحمله من رمزية وما تمثله من دلالات.

2.4.2. مفهوم الطقس:

هناك مصطلحات كثيرة تقترب من لفظ rite، مثل مصطلح احتفال cérémonie، fête، فمصطلح cérémonie احتفال فيشير إلى طقوس مدنية عامة، فهي ذات أصل دينوي، أما rituel فتتنطوي كلها تحت المجال الديني، أي الممارسات ذات الصبغة الدينية. ويقسم جيمس فريزر James Frazer (1880-1935) الطقوس إلى أربعة أصناف: الطقوس الودية التعاطفية والتي تنسم بخاصية المماثلة، الطقوس الإحيائية والتي تشخص فيها القوة (الإله والطوطم)، الطقوس الدينامية والتي تدخل فيها قوى مثل (المانا)، ثم الطقوس المتعلقة بالعدوى. (Segalen, 1998, pp. 8-9)

ويعرفه كازونوف Cazeuneuve "هو كل عمل يمكن أن يكون جماعيا أو فرديا، لكنه يظل دائما وفيها لجملة من القواعد التي تكوّن تحديدا ما يتضمنه من نظام طقسي. (Cazeuneuve, 1995, p. 14)

أما في اللغة العربية يشمل مضمون "الطقس" الدلالة على "الشعيرة". ولئن اقترن مدلول الشعيرة في اللغة العربية بما يدلّ على الممارسات المقدّسة التي تدخل المؤمن في حالة القداسة وتجعله يؤتي مناسكه التعبدية، ويحيل أيضا على المراسيم التي تنجز ضمن التعاليم الدينية للدخول في تجربة القداسة (كتلك المرتبطة عند المؤمنين مثلا بفرائض العبادات من صلاة وحجّ، وبشعائر الموت والأضحية وغير ذلك)، فإنّ مجال الطقوس يشمل أيضا إلى جانب ذلك الأنشطة والممارسات غير الدينية بما في ذلك الأنشطة الاقتصادية والسياسية والرياضية، وأفعال التواصل والتبادل التي تتمّ بين الأفراد في معيشتهم اليومي. (المحواشي، 2010، صفحة 15)

فالطقس هو الشيء المتبقي عندما تختفي الأسطورة، وعندما تمحى وتنسى الاعتقادات من الذاكرة الجماعية. ففي معظم الحالات، في الجزائر، فإن الأفراد يمارسون العديد من الطقوس بدون أن يجد لها تفسيراً مقنعا. فالممارسات الطقوسية حين وجودها، فهي تعبير عن امتحان من أجل تفعيل المعتقدات الشعبية، وهذه الأخيرة ليتم التعبير عنها في إطار من الحركات والسلوكات التي تندمج في الحياة اليومية مما يجعل الكثير من الطقوس تفقد دلالتها الدينية الأصلية. ولكن على الرغم من ذلك، ومهما كانت القيمة الرمزية للطقوس بالنسبة للأفراد الممارسين لها والمعنيين بها، تبقى الطقوس تمثل النواة الصلبة، لأنها بقيت تشكل (معلّما) موجها لحياة ممارسيها. فمجرد حركة أو فعل حتى وإن لم يكن ذات أهمية، وحتى وإن كان لا واعيا يمكن أن يمثل قيمة لطقس ما، إذ نحن نعلم منذ "مارسيل موس" Marcel Mauss أن مجرد حركات للجسد يمكن أن تتحول إلى طقس

أو حتى إلى مؤسسة غير قابلة للنقاش. (Marouf, 2005, p. 87). ولذلك يقول "ليني ستروس" بأن الأسطورة هي الشيء الجميل والذي يمس ويؤثر.

يتضمن الطقوس الفعل والحركة، وينجز في الآن نفسه مشاعر الناس ورغباتهم في التواصل مع عوالم من درجات مختلفة، يتوزع الإنجاز الطقوسي حسب إدوتي إلى ثلاثة أصناف: إنجاز حركي مثل الرقص والجذب، وقولي مثل الصلاة والتعزيم (الكلام المرافق للعلاج والسحر)، وآخر بصري مثل الوشم والطلاسمان. فداخل الطقوس لا يسهل فعل التمييز، أو وضع الحدود الفاصلة بين ما ينتهي داخل مكوناتها إلى السحر أو الأسطورة أو الدين. فالطقس مرتع العيش الجسدي لكل هاته المجالات، إنه يركبها داخل مكوناته ويُلون وظائفها وغاياتها حسب ثقافة كل جماعة، ومتخيلها، وزمنها الاجتماعي. (الزاهي، 2011، صفحة 81)

3.4.2. مفهوم المقدس:

انتبه إيمانويل كانط إلى التمييز الأساسي بين الدين والمقدس، وقد وضعه في التفريق بين المقدس le sacré والقداسة la sainteté أو الولائية. إذ يشير المقدس إلى العلاقة بين ذوات أو أشياء أو موضوعات هي أساساً موضوعات أو أشياء العالم. بينما القداسة أو الولائية فإنها تحيل إلى العلاقة بين ذوات: ذات إلهية وذات مؤمنة. ويضيف ج شيلهود في ذات السياق بأن المقدس يعانق في الآن نفسه كلا من الطاهر le pur والنجس l'impur. في حين يتوجه الدين للقداسة أو الولائية. هذا التمايز بين المقدس والقداسة أو الولائية، بقدر ما يعكس التمايز بين المقدس والدين، يحيل أيضاً إلى درجة التداخل والقرب الشديدين بينهما. ولذلك يعتبر أ بريتشارد أن العلاقة ما بين المقدس والدينيوي حركية ومطاطية. وليست تعاضدية ومتوازنة. فمكونات العالم الدينيوي ليست غائبة عن مجال المقدس، سواء على مستوى الوعي أو السلوك والاستمرارية حاضرة بما أن الجسد

يستخدم مثله مثل كثير من السلوكات الدنيوية في الكثير من الطقوس. واللعب الطقوسي أكبر دليل على الاستمرارية الفيزيو-نفسية بين السلوكات الدنيوية والمقدسة. إضافة إلى ذلك قد تؤدي أشياء دنيوية بسيطة مثل شرب الماء، وظيفة شرب العطش، وفي نفس الوقت وظيفة قدسية يؤثر عليها بحمد الله وشكره. (الزاهي، 2011، الصفحات 39-40)

فالمقدس هو المرجعية التي تسعى إليها كل ثقافة لتعيين القوى التي تفلت منها ولا يمكن لها أن تتحكم فيها، وهي تهدف لأن تسيطر عليها بواسطة مجموعة من الميكانيزمات والآليات والتي يمكن تلخيصها في كلمة "طقس"، وقد تكون هذه الآليات معلنة وفي أحيان أخرى مستترة وغير ظاهرة. (Moussaoui, 2002, p. 12). ومن هنا تظهر أهمية الطقس كطريق ومسلك يمارسه الفرد المؤمن للتقرب من المقدس، ويعبر من خلاله من المدنس نحو المقدس.

4.4.2. مفهوم القداسة: وقد نال موضوع القداسة حيزا من النقاش حتى ما بين الشرفاء والمتصوفين ببلاد المغرب كما في باقي الأقطار الإسلامية الأخرى، وقد كان النقاش خاصة حول أصل الشرف. إذ نجد أحد الوجوه العالمة المعروفة (بحوض الثمري) ببلاد موريتانيا، في رد في إحدى فتواه على سؤال حول أفضلية العالم أو الشريف إذ يقول: «بأن الشريف أفضل من العالم الفقيه على مستوى القرابة والنسب، أما العالم الفقيه فهو أفضل من الشريف على مستوى العلم، ولكن أفضلية العلم ومكانته أعلى من أفضلية النسب». (Boubrik, 2002, p. 70)

وبناء على ذلك يحتل الشرفاء القمة في سلمية الأوضاع، ويحتل التابعون القاعدة. وبينهما الأحرار (أهل القبائل والمدن) والمنحدرون من الأولياء (المرابطين). وهذه الفئة الأخيرة معقدة، فأعضاؤها دون الأحرار أو فوقهم، وذلك بالنظر للقوة الدنيوية التي يرثونها وأقدميتها، وحسب قدرتهم على إحيائها وتنميتها. وتتميز فئة المرابطين بطابعها المفتوح

لكل من يرشح نفسه لاكتساب البركة وتشغيلها، خلافا لفئة الشرفاء. (حمودي، 2003، صفحة 86) والتي هي فئة مغلقة تتحدد عن طريق الوراثة والانتساب القرابي السلالي.

في حين أن قداسة الأولياء المتصوفين، تستمد شرعيتها الدينية من مجاهدة النفس وترويضها روحيا وليس عن طريق الوراثة السلالية والبيولوجية، ولكنها تعتمد على التجارب الشخصية المرتكزة على علم الباطن والذي يميز الشيعة. (Fillali, 2002, p. 13) فالقداسة بهذا المفهوم هي اكتساب وليست وراثة، يكتسبها المتصوف الزاهد عن طريق الزهد في الحياة والخلوة ورياضة ومجاهدة النفس والبدن على حد سواء، وعن طريق التعبد وإتباع مسالك الصالحين.

5.4.2. مفهوم البركة:

البركة هي طريقة في تركيب التجربة الإنسانية، عاطفيا وأخلاقيا وفكريا وحاشية أو تعليقا ثقافيا على الحياة. فهي مسألة واسعة ومعقدة ودقيقة، إذ يعتبرها "كليفورد غيرتز" بأنها المقدس الذي يظهر بصورة شبيهة في العالم كعطية أو هبة أو قدرة لأشخاص معينين. ولذلك فهو يشبهها بالحضور أو القوة الشخصية أو الحيوية الأخلاقية... والبركة هي كل هذه الأمور وإن لم تكن نفس الشيء حتى ولو جمعت هذه الأشياء مجتمعة، إنها هبة موجودة عند بعض الناس بصورة أكثر مما هي عند غيرهم، وهي قلة من المرابطين في أعلى صورها. والمشكلة هي تعيين وتحديد من عنده هذه البركة ليس فقط من الأحياء بل وحتى من الأموات وما مقدار ما عنده منها وكيف يمكن الاستفادة مما عنده. (غيرتز، 2000، صفحة 51) ويعتبر "جاك بيرك" Jacques Berque أن للبركة قنوات يمكن من خلالها نقل هذه البركة من الشيخ إلى الأتباع والمريدين، وتتمثل في: التلقين والذكر الصامت أو المنشود، والرقص والجذب، واقتسام الأكل، والاستغاثة والمحممة والغثيان والاتصال بألبسة الشيخ وأشياءه ويديه. (Berque, 1962, p. 131)

كما أن مفهوم البركة ليس ميزة خاصة بالمسلمين فقط، وإنما توجد عند الكثير من الديانات الأخرى مثل مفهوم (المانا) عند الشعوب القديمة، وهي قوى موجودة في روح المخلوقات سواء كانت مخلوقات بشرية أو حيوانية وحتى نباتية، أو في الأشياء. وفي أحيان أخرى يكون نوع من التسمي والغيب. (Moussaoui, 2002, p. 17) وهذا ما يسمى في الإسلام بالخشوع والتقوى الذي يؤدي إلى التسمي وتجاوز الحياة الحسية إلى ما وراء الطبيعة أين لا يمكن للعقل أن يتدخل في تفسير أو فهم هذا العالم الذي يدهش ويندهل العقول ويلين العواطف والقلوب.

3. الدراسة الميدانية:

1.3. التعريف بالحيز الجغرافي والانحدار السلالي:

تسمى الوعدة موضوع الدراسة بوعدة "أهل الواد"، حيث تضم ثلاثة أولياء وهم على التوالي: سيدي أحمد، سيدي علي وسيدي عبد الله. إذ يتواجد مقامي الوليين (سيدي علي وسيدي عبد الله) بالقرب من بعضهما البعض، في حين أن سيدي أحمد يبعد عنهما بحوالي كيلومتر ونصف، ويفصل بينهم الواد، وربما لذلك تسمى بوعدة أهل الواد نسبة للواد الفاصل ما بين أضربة الأولياء الثلاثة. كما أنه إضافة إلى القباب أين يتواجد أضربة الأولياء الثلاثة، توجد المقابر، إذ أن لكل ولي مقبرة خاصة به وتسمى باسمه وتنسب إليه.

وفيما يخص المنحدرين من الأولياء الثلاثة، يعتبرون ثلاثة بطون منحدرين بدورها من عرش أولاد خالد، وتربط بينهم علاقات مصاهرة ونسب، كما أن الطابع الغالب للزواج هو الزواج الداخلي l'endogamie، إلا أن هذا لا يمنع من وجود بعض المصاهرات الخارجية والزواج الخارجي l'exogamie، وذلك نتيجة للتغيرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع المحلي نتيجة التحولات والتغيرات التي يشهدها المجتمع الجزائري وباقي الجماعات الأخرى.

وتقع مقامات الأولياء الثلاثة بإقليم بلدية "أولاد خالد" نسبة للجد الأول الذي ينحدر منه العرش. إذ يبعدون بحوالي ثلاثة كيلومترات شمال مدينة "الرباحية" عاصمة البلدية، وبحوالي سبعة كيلومترات شمالا عن مقر عاصمة الولاية "سعيدة". ونظرا لقرب الوعدة من المناطق الحضرية والشبه حضرية، فهي تشهد إقبال شعبي كبير، وهذا ما يساهم في إعطائها طابعا احتفاليا وفرجويًا تمتزج فيه الفرجة مع الفانتازيا والتجارة.

ويعتبر الولي هو الحامل للبركة وغالبا ما يكون من الشرفاء أو ممن يسميهم المغاربة (مولي البلاد) أي صاحب ومالك الأرض بالمعنى للكلمة، أي المهيمن روحيا على المنطقة المحيطة بالضريح وأحيانا بالمراكز الحضرية وربما حتى بمدينة بأكملها. أما الأبناء والأحفاد الأحياء للولي، ويسمون (أولاد السيد) فإنهم مثلهم من الشرفاء وينظر إليهم كحفظلة لقدسسية الولي وحفظلة لبركته ذلك لأنهم ورثوا عنه كما ورث هو عن النبي (ص). على أن هذه البركة موزعة بصورة غير متساوية بينهم، بحيث تقل عند النساء والأطفال، وإن كانت تلمسهم هذه البركة، وتظهر في واحد أو أكثر من أقرباء الولي والذي يكون قد ظهرت فيه القدرة على القيام بأعمال الكرامات وأصبح مشبعا بالقدسية. (غيرتز، 2000، صفحة 56)

2.3. التحضير اللوجستي والإعلان عن موعد الاحتفال :

وقد جرت العادة أن "المقدم" وهو الشخص الذي يمثل رمزية خاصة ويمتلك رأسمال اجتماعي ورمزي بالنسبة للأحفاد والمنحدرين من الأولياء الثلاثة هو الذي يحدد ويعلن عن تاريخ تنظيم الوعدة، ومن ثم يُبلغ الأعيان والذين بدورهم يقومون بإبلاغ البقية للتحضير والترتيب المادي والمعنوي لهذا الاحتفال (الوعدة) السنوي الهام، كما يتم إبلاغ الفرسان من العروش والعشائر الأخرى للمشاركة في الفانتازيا واللعب على الخيل وممارسة الفروسية، والذي يعتبر ركنا مهما في هذه الاحتفالية.

وفيما يخص احتفالية الوعدة فهي تقام سنويا ودوريا من خريف كل سنة، وغالبا ما تكون في نهاية شهر سبتمبر أو بداية شهر أكتوبر، أي بعد انتهاء موسم الحصاد وجمع الغلة والمحصول الفلاحي، والاستعداد لموسم الحرث والبذر للسنة الفلاحية الجديدة. وقد جرت العادة على إقامة احتفالية الوعدة بيوم الجمعة، وذلك باعتبارها يوم مقدس بالنسبة للمسلمين إضافة إلى أنها يوم عطلة، مما يسمح للجميع للمشاركة في هذا الاحتفال سواء بالنسبة للمنظمين أو للزوار والضيوف. غير أنه في السابق قبل العشرية المأساوية التي عرفتها الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، كانت احتفالية الوعدة تبدأ من يوم الخميس، حيث يقوم أحفاد الأولياء الثلاثة بالتنقل إلى أماكن تواجد الأضرحة وعلى ضواحيها ويقومون بنصب الخيام، كما يحملون معهم كل مستلزمات الطهي والطبخ إلى جانب الأضحية والتي تعتبر الشرط الأساسي والضروري في هذا الاحتفال، إذ يبيتون بهذه الخيام، وتقوم النساء بالتحضير والإعداد للطعام والذي يتمثل أساسا في الكسكسي، إضافة إلى فاكهة العنب والتي تكون متوفرة في هذا الموسم. وعادة ما يتم تحضير العشاء في اليوم الأول ويقدم للأهل والأقارب وللسكان القاطنين بالقرب من مكان إقامة الاحتفال. وبالموازاة تتم دعوة بعض الأعيان والشخصيات التي تحظى بمكانة اجتماعية مرموقة وذات جاه ومال ونفوذ، حيث تُخصص لهم وجبات عشاء مميزة وخاصة على عكس البقية. غير أنه ابتداء من التسعينيات نتيجة للأزمة الأمنية التي عرفتها الجزائر، فقد أصبح تنظيم احتفال الوعدة مقتصرًا على يوم الجمعة فقط، وعلى الرغم من تحسن الوضع الأمني في البلاد إلا أنه بقي مقتصرًا على هذا اليوم.

3.3. احتفالية واحدة وفضاءات متعددة:

وفي صباح يوم الجمعة تشد الرحال ويتنقل الأحفاد والأتباع إلى مقامات الأضرحة باكرا وذلك لنصب الخيام بمحاذاتهم، واحضار كل ما يلزم من أواني وأغطية وأفرشة ومواد غذائية (الكسكسي، الزيت، الشاي، القهوة، السكر والخضر والعنب...)، إلى جانب

الأضحية والتي غالباً ما تتمثل في كباش أو خرفان من الماشية، والتي يتم ذبحها وسلخها باكراً لكي تكون جاهزة للطهي في الوقت المناسب، أي مع منتصف النهار يجب أن يكون الغذاء جاهزاً ليقدم إلى الضيوف الوافدين من الأماكن القريبة وحتى البعيدة ممن يستهويهم هذا النوع من الاحتفالات الفلكلورية والشعبية.

ومع الساعات الأولى من الصباح تبدأ الوفود بالالتحاق جماعات وفرادى، ومن بين الحضور الأوائل لهذا الاحتفال التجار المتنقلين المختصين في بيع الحلويات والألعاب، إذ يتخذون أماكن وزوايا من الفضاء المخصص لهذه الوعدة. كما يحضر أصحاب الزرنة أو الناي (القصبية) رفقة المدّاح، وهم مجموعة متكوّنة من أربعة إلى خمسة أشخاص، منهم من يضرب على الدف والطبل (القالل)، ومنهم من يعزف على الناي (القصبية) إضافة إلى المدّاح الذي يردد بعض الأشعار والمدائح الدينية الشعبية، والتي تختص خاصة بمدح الرسول (ص). وتتخذ هذه المجموعة مكاناً معيناً داخل هذا الفضاء ويبدأ الجمهور في التحلق حولهم للاستماع والاستمتاع والفرجة، ومن حين لآخر يقوم الحاضرين بتقديم مبالغ مالية على شكل هبات وصدقات إلى أولئك الشيوخ (المدّاحين) مقابل بعض الأدعية لجلب البركة والخير.

في حين أن البعض من المحتفلين يغتنم فرصة التواجد بالقرب من مقامات الأولياء الثلاثة، لزيارة أضرحتهم للترحم عليهم، وللتبرك ببركاتهم أيضاً. ولا يزال هذا الاعتقاد راسخاً عند فئة كبيرة من المجتمع الجزائري وخاصة عند العنصر النسوي. ومعظم الكرامات والمعجزات قد مرت منذ زمن بعيد، في حين بقيت الذاكرة الشفوية في ترديدها وتوارثها ونسبها لهذا الوليّ أو ذاك. كما أن غالبية الأولياء لا تظهر أهميتهم إلا بعد وفاتهم، حيث أن كراماتهم تتأكد بعد مفارقتهم الحياة. أما بالنسبة للمرابطين والأولياء الأحياء، فإنهم يتميزون بمعجزات وقدرات بسيطة، فهم يتمتعون بمعرفة الأسرار. وربما هذا ما يمكن أن

يفسر لنا كثرة القباب والأضرحة التي تحظى بتقدير واحترام كبيرين في أوساط المجتمعات المغاربية حتى يومنا هذا.

ولأجل ذلك فإن مفهوم البركة مرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم القداسة والولاية، وهذه الأخيرة لها علاقة مباشرة مع مفهوم الكرامة. فهي مهمة الأولياء والتي تعتبر كاستمرارية للمعجزة النبوية، وإذا كانت المعجزة برهان على الرسالة والمهمة النبوية، فإن للكرامات نفس الوظيفة بالنسبة للأولياء. فازدواجية العلاقة بين المعجزة والكرامة وتداخلها تؤول إلى الذوبان الذي ينشئ بين المجال النبوي والمجال الأوليائي والذي يمثل أحد العوامل المهمة للوظيفة الدينية والاجتماعية للكرامة. (Boubrik, 2002, p. 86)

غير أن الفرجة الأكثر شعبية والأكثر جلبا للمتفرجين هي الفروسية والفانتازيا التي تميز هذا الاحتفال، والتي تمثل قمة التباهي والتفاخر ما بين العشائر والعروش المشاركة، وذلك لِمَ تمثله الخيل والفروسية في الثقافة المحلية والشعبية من قيم الشجاعة والأصالة والتشبث بالهوية والتاريخ. فالاستعراض يكون على شكل مجموعات قد تزيد أو تنقص حسب عدد المشاركين، والتي تكون في حدود العشرة فرسان في الغالب، ويكون تقسيم المجموعات على أساس عروشي أو عشائري، أي أن لكل عشيرة أو عرش مجموعة (علفة) أو أكثر. كما أن لكل مجموعة (علفة) شخص يردد بعضا من الشعر الشعبي والمدح والذي يسمى (القول)، والذي يردد هذا (المؤال) قبل انطلاق كل جولة من جولات السباق.

في هذه الأثناء ينقسم الفضاء إلى فضاءات عديدة، والتي تتوزع ما بين الفرجة و(الفانتازيا) وحلقة المدّاحين، وفضاء التجارة والألعاب، إضافة إلى فضاء المقدس وزيارة الأولياء والمقابر. غير أن العنصر النسوي يبقى غائبا عن هذا الفضاء، ويقتصر وجودهم فقط داخل الخيام لإعداد الطعام. ومما يميز هذه الفضاءات أنه لا يوجد حدود فاصلة ما بينها، هذه الفضاءات التي تشكل مجتمعة هذا الفضاء العام والذي يتمثل في هذه

الاحتفالية (الوعدة)، إذ أن الزائر يمكنه أن يتنقل من فضاء لآخر بدون أن يشعر بأي حواجز أو عوائق. وتجمع الوعدة جماعات اجتماعية متميزة وهو ما يجعل منها فضاءا للتواصل اللغوي والجسدي، وكذا مجالا لإظهار وعرض خصوصيات وتميزات التعبيرات الطقوسية والرمزية.

وفضلا عن ذلك، فإن الوعدة لا تقتصر على جانبي الاحتفالي والطقوسي فقط، بل هي فرصة أيضا لعقد المصاهرات وعقد القران بين أبناء وبنات المنتسبين للأولياء الثلاثة (الشُرُفة والمرابطين)، وهي بمثابة نوع من التحالفات. كما يتم بالمقابل إقامة الصلح ما بين المتخاصمين من المنتمين إلى العشيرة. ومن الجانب الآخر فإن الوعدة تمثل مصدر رزق للعديد من التجار المتجولين، حيث يحضر الكثير من التجار لعرض سلعهم والمتمثلة أساسا في الحلويات ولعب الأطفال، وبعض الملابس التقليدية.

وعند اقتراب وقت الغذاء يجتمع الجمع على شكل حلقة كبيرة، حيث يقوم (المقدم) بتلاوة الفاتحة والقيام بالدعاء والتضرع لله لإنزال الخير والبركة وسقوط الغيث، والدعاء للمنظمين والزوّار. كما يضرب موعد للسنة المقبلة لإعادة إحياء هذه الاحتفالية (الوعدة) وبعد ذلك يبدأ في توزيع الضيوف والزوّار على المنظمين، إذ يأخذ كل واحد من أصحاب الوعدة مجموعة من الضيوف إلى مقر إقامته (الحجير) أين يتوزع الضيوف إلى مجموعات متكوّنة من أربعة أفراد لكل مجموعة ويقدم لهم الطعام والذي يتمثل في (الكسكسي) واللحم والعنب. ويقوم أصحاب الوعدة بخدمة ضيوفهم والحرص على إطعامهم وإشباعهم. والشيء المميز للوعدة أن كل من يحضر يعتبر ضيفا ويجب إطعامه بقطع النظر عن كل الاعتبارات الاجتماعية أو الثقافية الأخرى، ولذلك تعتبر محجا ووجهة للفقراء والمساكين والدراويش عكس الولائم والمأدوبات التي تقام على شرف ضيوف معينين ومحددين قبلها.

4. نتائج الدراسة:

النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة هي كالآتي:

- بالرغم من التحولات والتغيرات العميقة التي حدثت للجماعات القبلية والعشائرية اليوم، ومنها مجتمع بحثنا، تبقى احتفالية الوعدة ذات أهمية بالنسبة للمجتمع المحلي، وذلك كاعتقاد منها أنها من خلال إحياء هذه الاحتفالية تحافظ الجماعة على نفسها وتواصلها، كما تعيد من خلالها معالم هويتها وترسم أفاق استمراريتها.

- يسعى المجتمع المحلي (المبحوث) من خلال التنظيم الدوري والمنتظم لاحتفالية الوعدة إلى شحن نفس البقاء والتواصل والارتباط بعالم الأجداد. فكل جماعة (عشيرة أو عرش) تحتاج إلى طقوس للمحافظة على تكرار نفسها وهذا ما ينطبق على احتفالية موضوع الدراسة.

- يُعتبر تنظيم وإحياء احتفالية الوعدة بالنسبة للجماعة المنظمة (المنحدرين من الأولياء الثلاثة) نوعا من استراتيجيات المحافظة على التراتب الاجتماعي، وشكلا من أشكال التمايز الاجتماعي، والمتمثل في إظهار الإنحدار السلالي (النسب الشريف)، وبالتالي الحياة على البركة.

- احتفالية الوعدة بالنسبة لمجتمع بحثنا هي نوع من أنواع المقاومة للتيارات السلفية الوافدة التي تحرم هذه الاحتفالات وهذه الممارسات الطقوسية.

- انخفاض في درجة الاهتمام بالنسبة لفئة الشباب نتيجة التغيرات والتحولات التي عرفها المجتمع على مستوى البنى السوسيوثقافية والسوسيواقتصادية، وذلك جراء التطور التكنولوجي الهائل في وسائل ووسائط الاتصال والتواصل الاجتماعي، وما أحدثه على مستوى الترابط الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية.

-التراجع المتزايد في مستوى التقديس والاعتقاد بالبركة لحساب الدور الاحتفالي والفرجوي، وخاصة منه سباق الخيل والفانتازيا، حيث أصبحت احتفالية الوعدة بالنسبة للكثير من الضيوف والزائرين تمثل نوعاً من الفضول والتسلية.

5. خاتمة:

وفي الختام، وعلى الرغم من التغيرات والتحولات السريعة والمتسارعة، التي عرفها المجتمع الجزائري بعد الاستقلال ومنه مجتمع البحث، غير أن احتفالية الوعدة بقيت كموروث شعبي يعاد إنتاجه من قبل المجتمع المحلي. إلا أن ما أمكننا ملاحظته واستنتاجه، هو أن هناك العديد من القيم والمعتقدات والممارسات المرتبطة باحتفالية الوعدة قد أصابها تغير وتحول على مستوى الجوهر حتى وإن بقيت محافظة على شكلها الظاهري. وهذا ما يعني أن مجالات الممارسة الرمزية ذات الشحنات السحرية، والطقوس، قد ضاقت ولم تعد ذات معنى مثلما كانت في الماضي. كما أن الأنشطة والممارسات الطقوسية في مجتمعاتنا الحديثة حيث طغت العقلانية والنفعية والمصلحية، قد تحولت إلى ممارسات مفرغة من المعنى ولا تقع إلا في هامش الأنشطة التي تنتج المجتمع.

ونتيجة للعوامل الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية ... والمتمثلة في العديد من مؤشرات العصرية والتحديث كانتشار التمدن وارتفاع المستوى الثقافي، تحسن الخدمات الطبية انتشار العمل الصناعي، سياسات التوظيف المأجور، والنزوح الريفي نحو المدن، الانتشار الواسع لوسائل ووسائط الاتصال والتواصل الاجتماعي، فقد جعل من ظاهرة الوعدة كاحتفال شعبي يفقد الكثير من المميزات والخصائص على الرغم من استمراره، إذ أصبح يشكل بالنسبة للكثيرين فرصة للفرجة والتزّه، كما فقد جانب مهم من الهالة القدسية التي كان يحظى بها. كما أن ظاهرة الوعدة بقيت متمركزة بالمناطق

الداخلية والريفية خاصة، وقد يرجع ذلك لقلة أو انعدام الفضاءات العمومية للتسلية والفرجة من مثل المسارح ودور السينما والفضاءات العامة.

6. قائمة المراجع:

- Abderrahmane Moussaoui. (2002). *Espace et sacré au Sahara* . Paris , France : Éditions CNRS.
- Berque, J. (1962). *Le Maghreb entre les deux guerres*. Paris , France : Seuil .
- Boubrik, R. (2002). *Saint et société*. Paris, France : Éditions CNRS .
- Cazeuneuve, J. (1995). *Les conduites rituelles* (éd. Deuxième édition). Paris , France : Presses universitaires de France .
- Fillali, K. (2002). *L'Algérie mystique* . Paris , France : Publisud.
- Marouf, N. (2005). *Les fondements anthropologique de la norme maghrébine*. paris , France : L'harmattan .
- Segalen, M. (1998). *Rites et rituels contemporains*. Paris, France : Nathan.
- الهادي بو وشمة. (ديسمبر, 2008). الوعدة التمثل والممارسة. دراسة أنثروبولوجية بمنطقة أولاد نهار. *مجلة إنسانيات* (39-40).
- عبد الله حمودي. (2003). *الشيخ والمريد* (الإصدار الطبعة الثالثة). (عبد المجيد جعفة، المترجمون) الدار البيضاء ، المغرب : دار توبقال للنشر والتوزيع .
- كليفورد غيرتز. (2000). *الإسلام من وجهة نظر علم الإناسة*. (أحمد قادر، المترجمون) بيروت ، لبنان .
- محمد مكحلي. (2018). سيدي بلعباس البوزيدي ولي وولاية. تلمسان، الجزائر.

- منصف المحواشي. (2010). الطقوس وجبروت الرموز قراءة في الوظائف والدلالات في مجتمع متحول. مجلة إنسانيات (49)، صفحة 15.
- نور الدين الزاهي. (2011). المقدس والمجتمع. المغرب : إفريقيا الشرق .
- نور الدين طوالي. (1988). الدين والطقوس والتغيرات (الإصدار الطبعة الأولى). الجزائر، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.